سورة الروم(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ①﴾

﴿ الٓمٓ ①﴾ [الروم] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار فى هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن فى مجمله مبنى على الوصل فى آياته وفى سوره ، فآخر حرف فى السورة موصول بأول حرف فى التى تليها ـ فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المحْسنينَ بسْمِ الله الرحْمنِ الرحيمِ ...) .

---

(1) سورة الروم ، هى السورة رقم (٣٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية. قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٧/٧) : « سورة الروم مكية كلها من غير خلاف » نزلت قبل سورة العنكبوت وبعد سورة الانشقاق ، فهى السورة رقم (٨٣) فى ترتيب نزول القرآن . (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١) .

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (.... مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيمِ الْحَمدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة في أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] . فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما في هذه الحروف من سرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه[(٢)] :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾

كلمة ﴿ غُلِبَتِ .. (٢) ﴾ [الروم] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧٦/١٨) من حديث عوف بن مالك الأشجعي ، قال الهيثمي في المجمع (١٦٣/٧) : « فيه موسى بن عبيد الربذي وهو ضعيف » .

(٢) **سبب نزول الآيات** : بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) ..... ﴾ [الروم] إلى آخر الآيات .

وغُلب فريق ، فالذى غَلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق[1] بن إبراهيم .

﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ[2] وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾

قوله ﴿ أدْنَى .. ۝٣ ﴾ [الروم] يعنى : أقرب لأرض العرب ، كما فى ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ۝٤٢ ﴾ [الأنفال] فالعُدْوة الدنيا أى : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ .. ۝٣ ﴾ [الروم] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ ﴾ [الروم]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢٤) : « الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة » .

(٢) الأرض هنا هى أرض الشام . وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال :
- أذرعات : وهى ما بين بلاد العرب والشام . قاله عكرمة .
- الجزيرة : وهى موضع بين العراق والشام . قاله مجاهد .
- الأردن وفلسطين : قاله مقاتل .

قال ابن عطية :
- إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة .
- وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .
- وإن كانت بالأردن فهى أدنى أرض الروم . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٠] .

بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس فى القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففى القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمة الإسلام ، فالذى يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذى لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء ؛ لذلك لما غُلبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن فى هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .

وكلمة ﴿غَلَبِهِمْ .. ③﴾ [الروم] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول : أعجبنى ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضفت المصدر للفاعل . وتقول : أعجبنى ضَرْب المذنب فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿غَلَبِهِمْ .. ③﴾ [الروم] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سبحانه : ﴿سَيَغْلِبُونَ ③﴾ [الروم] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ④﴾ [الروم] وهى أيضاً دالة على الاستقبال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتى فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم فى مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتى فى بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .

فهتلر مثلاً لما انهزم في الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء فى عام ١٩٣٩ وهدد العالم كله بالحرب ، فهل سقطت

عليه القوة التى يهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّز الجيش والأسلحة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القوة التى يهدد بها .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] ففرح المؤمنون حتى قال أبو بكر : والله لا يسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الرومَ على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تعنى من الثلاثة إلى العشرة ، فأخذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّدِّيق ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحمِّل المؤمنين مشقة الصبر مدة التسع سنين ، وهذه من الصديقية التى تميز بها أبو بكر رضى الله عنه .

لذلك قال أبو بكر لأُبيٍّ بن خلف : والله لا يقرّ الله عيونكم ـ يعنى : بما فرحتم به من انتصار الكفار ـ وقد أخبرنا الله بذلك فى مدة بضع سنين ، فقال أُبيٌّ : أتراهنني ؟ قال : أراهنك على كذا من القلائص ـ والقلوص هى الناقة التى تركب ـ فى ثلاث سنين عشر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلما ذهب أبو بكر إلى رسول الله ، وأخبره بما كان قال : « يا أبا بكر زِدْه فى الخطر ومادِّه » ، يعنى زِدْ فى عدد النوق من

عشرة إلى مائة وزده فى مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبىٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق فى الرهان على مائة ناقة[(١)] .

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصِّدِّيق مهاجراً[(٢)] رآه أُبىٌّ بن خلف فقال : إلى أين يا أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبكْر هو الجمل القوى يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير ـ فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذى بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلنى فيه ولدى عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدى .

وفى بدر[(٣)] أصيب أُبىٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والبيهقى عن قتادة ، ولفظه . أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وعلى رأسهم أبو بكر : « ألم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلاً دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر » فزايدوهم ومادّوهم فى الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤٨٢/٦] .

(٢) كان أبو بكر الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه . قاله ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٨٠/٢) كان هذا فى الهجرة إلى المدينة ، ولكن ثبت فى السيرة النبوية (٣٧٢/١) أن أبا بكر الصديق لما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىَّ . ثم أدخله فى جواره ورجع أبو بكر إلى مكة .

(٣) أُبىّ بن خلف قُتل فى غزوة أحد ، وليس فى غزوة بدر ، وقُتل بيد رسول الله ﷺ [ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢١٢/٣)] ، أما الذى قُتل فى غَزوة بدر فهو أمية بن خلف قتله بلال (السيرة النبوية لابن هشام ٦٣٢/٢) .

ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدقوا به »[1] .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التى يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذى اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية .. إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشىء الذى يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث فى أسرار الكون ليرتقى فى الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك ، وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : ستْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه

(١) التصدُّق بالرهان بعدما جاء رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٤٨٠) وعزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أن أبا بكر هو الذى حمله إلى رسول الله فقال : « هذا السحت تصدق به » ولم يرد فيه ذكر لعبد الرحمن بن أبى بكر . فالله تعالى أعلم .

رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ في إنسان سيئة واحدة تزهدك في كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضي ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضي قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتي مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث في الماضي ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث في المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد في مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشيء في مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فمَن الذي أخبر رسول الله بما في نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور في نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذي أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله في غزوة مؤتة[1] التي دارتْ على أرض الأردن ورسول الله ﷺ بالمدينة - ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التي حضرها رسول الله ، وكل حدث

(١) كانت في جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة ، زاد المعاد لابن القيم (٢/١٥٥) .

حربى لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هى التى انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور فى الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلان فقُتل ، فأخذها فلان فقُتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله[1] .

كما خَرق له حجاب الماضى ، فأخبره بحوادث فى الأمم السابقة كما فى قوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص] ، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل ، كما فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها : ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ.. (٤)﴾ [الروم] فأرونى أىَّ قوة (كمبيوتر) فى الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد ﷺ ، وهو النبى الأمى المقيم فى جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس - يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذى يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذى أخبره ، وكون محمد ﷺ يعلنها ويتحدَّى بها فى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) .

ولهذه الثقة سُمِّى الصِّديق صدِّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق [١] . ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته فى صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. ④ ﴾ [الروم] يعنى : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغى أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذى يحزن لذلك ، والعاقل هو الذى يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرنى دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرنى بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد عدوى منى فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنَّةٌ ... فَعِنْدى لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كَدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّهِ ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّى الأعَاديَا

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢، ٦٣) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وهُم بحـثُوا عَـنْ زَلَّتى فَاجْتنبتُها   وهُمْ نافسُونى فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمـر من قبل ومن بعـد ، وله الحكمـة فى أنْ ينتصـر الباطل ، ألاَ ترى غـزوة أحد ، وكيف هُزِم المـسلمون لما خالفـوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمـعاً فى مغنم ، انهزموا فى أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله فى كونه تقضى بالهزيمة حين نخالف أمر رسـول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصـر المسلمون مع مخالفتهم لأمـر رسولهم ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرسول مـصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفى يوم حنين : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قلَّة[1] ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا فى بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم فى النهاية .

إذن : فلله الأمـر من قبل ومن بعـد ، فإياك أن تظن أن انتـصار الباطل جاء غصْبـاً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقـول سبحـانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] أىّ نصر الذى يفـرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتـصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفـرح هنا دوائر متشابكة ومتـعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كـتاب على كفار وملاحدة ، ويفـرحـون أن بشـرى رسول الله تحـقـقتْ ، ويفـرحـون لأنهم آمنوا

---

(١) أخرج البيهقى فى الدلائل (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذى يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله ﷺ . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شىء واحد ، إنما عدَّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذى انتصر فيه الروم صادف اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى بدر[1] .

وقوله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ .. ۝٥﴾ [الروم] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذى يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية فى هذه الصفة - ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحدث فى نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتى القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شىء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقى الباطل ولا يُعلى الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] إلى قوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الروم] قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

﴿الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هى العليا ؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ، أما كلمة الله فهى العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ .. (٦)﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذى كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخْرجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدركْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأيُّ نعمة فى النار وفى الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهى عنه كالوالد الذى يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أى : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾

إذا رأيت فعلاً نُفى مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شيء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التى وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعى الذى نعمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق فى هذا العصر ، روسيا التى تبنتْ النظام الشيوعى ودافعتْ عنه بكل قوة هى التى نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدى أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التى ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت فى المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث فى البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات فى الماضى ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفى أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذى اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن فى غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[1] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (فى تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلى . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال] فنفى الرمى ، وأثبته فى آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشىء ، والنفى لشىء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو فى الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. (١٧) ﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعت هذه القوانين وشُرعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذى يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطى لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسى عاقبة ذلك فى الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهِم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقظهم ، إنما ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .